طريقة فى النقد

مقدمة « تاريخ للآداب الانكليزية » الفيلسوف « ايبوليت تين »

بين طرائق النقد عند الفرنسيين طريقة معروفة منسوبة إلى الفيلسوف النظرى « تين » . ويطلقون عليها اسم طريقة النقد الطبيعى . وقد كان « تين » من فلاسفة الطبيعة النظريين . جعل هذه الطريقة تصديراً لكتابه الجليل فى « تاريخ الآداب الأنكليزية » . وطبقها ببراعة على أدباء الانكليز وشعرائهم . وجاءت طبقة من النقاد من بعده وراعت قواعد طريقته . وكان نظر « تين » فى الآداب طبيعياً ونزعته علمية وقد عم تأثيره اوربا منذ سنة ١٧٦٥ .

تناول « تين » بتفكيره القوي اهم المواد العلمية وعلى الاخص التاريخ والفلسفة والنقد . ولما ظهر كتابه « الذكاء » سنة ١٨٧٠ عد مجهوداً عظيما فى سبيل افراغ السيكولوجية فى قالب العلم البحث . وقد عول على نظريات « كوندياك » والفلاسفة الانكليز « ستوارت مل » و « بين » و « سبنسر » ولكنه تجاوزهم وارجع العقل الى المشاعر والى الانفعالات العصبية . وجعل من ملكة التجريد الممتاز التوحيد بين ذكاء الانسان وذكاء الحيوان وجعلها الملكة التى تتولد منها جميع الفكر اعد حتى فكرة « الذات » نفسها .

ولقد ارتفع مقام فن القصص منذ أن شاع رأى « تين » فى وجوب اتخاذ السيكولوجية العلمية اساساً للتاريخ . وان مهمة المؤرخين فى شأن الماضى هي بذاتها مهمة كبار الروائيين والدراميين فى شأن الحاضر . فأى قصصى يأبى ان يكون عظيما فى فنه بالامتناع عن إعتماد العلم والاستعانة به ؟

كان « تين » يربط جميع الافعال السيكولوجية بالافعال الفزيولوجية . ويرى ان أفكارنا ومشاعرنا مقيدة بحركات دقيقة تصدر عن المراكز العصبية . فأرجع الفكرة للصورة والصورة للاحساس وأبان عن هذه الملاحظة الدقيقة برأيه فى دائرة الآداب . فقال انه ليس فى الانسان غير احساسات وغرائز . وماسوى ذلك بهتان وسخف وروحية لا يجدر بالعالم ان يلتفت اليها . وجمع « تين » الحالات الشاذه وجعلها برهانا على صحة

رأيه . وفى الآداب لا يصلح للقصة الجدية غير « الذات » الشاذة لا العادية . وانه ليس ثمة بسيكولوجى بلا اعصاب عليلة . ولم يخلف « بو » ولا « بلزاك » ولا « ديكنز » مذكرات عن سر قواهم العقلية . ولكن « تين » دل علماء النفس على موضوع طريف للبحث « ان الحالة الشاذة وحدها هى التى تصلح للقصة الجدية » .

وفى دائرة التحليل لم يلحظ « تين » فى العالم الادبى والطبيعى سوى الاحساسات والحركات، فقال ان الزوال العام من صفات العالم، وان الطبيعة اشبه بشفق قطبى عظيم

***

اما مؤلفه الجليل فى « تاريخ الآداب الانكليزية » الذى اصدره سنة ١٨٦٣ فهو من خير ما كتب فى فن النقد . وبحسب نقد « تين » جزءاً مكملا لفلسفته . فان كل دراساته فى الآداب لا تخرج عن كونها ملاحظات سيكولوجية علمية . والمبدأ الذى اعتمده « تين » ينحصر فى رأى « سبينوزا » فى أن الانسان فى الطبيعة ليس عالماً فى عالم، « انما هو جزء فى كل » ، وان ما يصدر عن الكائن الروحى الذى هو فينا من حركات، انما يدبر على مثال ما تدبر حركات العالم المادى الذى هو فيه » ، واعتبر التآليف الادبية منتجات لازمة يمكن تفسير عناصرها وتكوينها متى اعتمد فى ذلك على طريقة حسنة . وانما أراد « تين » الاستعانة بالعلم . وقد وصف تآليف « سانت بيف » بانها « كراسات لا تحوى غير الملاحظات » . وان المعرفة التامة لا تتأتى إلا بتجاوز الحد الذى بلغه « سانت بيف » ، وأن الآداب خاضعة لثلاثة عوامل عامة : العنصر والبيئة (طبيعية او تاريخية) والزمن .

كذلك تعد الآداب الانكليزية ثمرة، مصدرها العنصر الانكليزى تحت مناخ انكلترا وظروفها التاريخية وعقائدها الدينية .